كتابك

(٢٩)

ثروت أباظة

القصة في الشعر العربي





هـذا الكتـاب

جولة فنية خلال الشعر العربى قديمه وحديثه . . يتتبع فيها المؤلف جذور القصة فى أعمال عدد من الشعراء الذين أثروا بعطائهم الوجدان العربى منذ أقدم العصور . . ابتداء من امرئ القيس وعنترة مرورا بالمتنبى والبحترى وابن الرومى . . وانتهاء إلى شوقى وحافظ ، مؤكداً أن الشعر كفن يمكن أن يكون أداة طيعة . . ومحتوًى قصصياً ثرياً .

٤٥٠٢٨٩ / ١

١٠

كتابك (٢٩)

رئيس التحرير : أنيس منصور

ثروت أباظة

القصة في الشعر العربي



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدّمة

القصة بشكلها الحالى جديدة على الأدب العربى . وأعتقد أن العرب لم يكونوا فى حاجة إلى القصة أو المسرح ، فقد كانوا بعيدين كل البعد عن منابت هذين الفنين . وإن كانت الرحلات التجارية قد قامت بدور كبير فى تناقل الحضارات فإننى أعتقد أن التجار من العرب لم يكونوا يهتمون بمجال القصة أو المسرح ، فقد كان شعرهم يغنيهم عن الفنون الأدبية الأخرى غناء كاملاً ، فالنثر الأدبى نفسه لم يزدهر إلا حين نزل القرآن على النبى ﷺ ، وقد كان الشعر يشيع فى نفوسهم النزعة التى تنزع بعشاق القصة اليوم إلى قراءتها .

ولما كنت أرجو ألا تتسم هذه الدراسة بسمة منهجية فإننا سنختار من الشعراء من نشاء ، دون أن نتقيد بعصر معين ، وإنما نمد أيدينا إلى المكتبة ونختار من شعرائها من يطيب لنا أن نختاره ونقلب العين ين قصائده . ونرى أثر القصة فى شعره . فاعتقادى أن ماكانت ترويه هذه القصائد وما كانت تتناقله ألسنة العرب بعد ذلك جعلهم فى غنى عن إنشاء القصة وروايتها .

ثروت أباظة

القصة فى شعر جميل بثينة

وقد اخترنا شعر جميل بثينة لنبدأ به هذا البحث .

وجميل هو جميل بثينة . انتسبت إليه فتناقلت الأجيال اسمها ، لأن شعر جميل دمغ الأجيال بعذوبته ورقته . أما اسم جميل فهو جميل بن عبد الله بن معمر من بنى عذرة من قبيلة قضاعة . وبثينة أيضاً من عذرة ، فليس عجيبًا إذاً أن يشب بينهما الحب . وليس من المعروف متى ولد جميل . إلا أنه عاش فى عهد معاوية بن أبى سفيان من ٤٠ إلى ٦٠ هجرية . أما موت جميل فكان فى عام اثنين وثمانين هجرية ومن عجب أن يعى التاريخ عام موته ولا يعى عام مولده . لا علينا . . .

ويروى التاريخ أيضاً أن جميلاً كان وسيمًا قسيمًا ، طويل القامة عريض المنكبين متأنق الملبس ، أما بثينة فيقول عنها العقد « وصفها جميل بعين المحب . ووصفها غيره كما يراها كل من رآها . فخلص لنا من جملة هذه الصفات أنها كانت أدماء طُوالة كما قال عمر بن أبى ربيعة وأنها تفرع النساء طولاً » . أما جميل فيقول فى وصفها « حسناء بدوية لم يثقلها ترف الحاضرة ولم يعرقها شظف العيش ، فهى رقيقة معتدلة الخلق سامقة الخلق ، مستحبة الملامح لمن يراها ، مفتوناً بها أو غير مفتون » وقيل

إن بثينة حين علمت بحب جميل لها وتشبيبه بها حلفت بالله لا يأتيها على خلاء إلا خرجت إليه لا تتوارى عنه . وهكذا وضعت بثينة فى هذه الفترة السحيقة البعد فى أغوار التاريخ مبادئ حرية الحب وحرية اللقاء .

وأحسب أننا لو تتبعنا أخبار العاشقين من خلال التاريخ لطال بنا الحديث وما خلصنا إلى الشعر الذى نريد أن نستشف القصة من خلاله .

بنا الآن إلى شعر جميل الذى قال عنه كثير « هل وطّأ لنا النسيب إلا جميل » اسمعه معى يقول :

وأول ما قاد المودة بيننا   بوادى بغيض يا بثين سباب
وقلت لها قولاً فجاءت بمثله   لكل كلام يا بثين جواب

لقد روى لك فى هذين البيتين قصة اللقاء والحب بينهما ، وكيف نشأ هذا الحب أول ما نشأ على سباب بينهما ، وشأن الكاتب القصصى الذى لا يريد أن يعنى بالتفاصيل ألمح إليك أنه قال قولاً فجاءت بمثله . وأنهى القصة بالحكمة التى كان ينهى بها القصاصون قصصهم فى الأزمان الخالية لكل كلام يا بثين جواب . ولك أنت أن تتخيل القصة وتنسجها ما طاب لك التخيل والنسج ، فإن أجمل أنواع الفن هو ذلك الذى يترك لك أن تشارك فيما يخلقه الفنان ، وتتخيل معه وتعيش دنيا فتح لك أبوابها وترك لك حرية الحياة فيها .

وانظر إلى قوله :

ألا أيها النُّوام ويحكمُ هبوا
أسائلكم هل يقتل الرجل الحب ؟
فقالوا نعم حتى يسل عظامه
ويتركه حيران ليس له لب
ألا رب ركب قد دفعت وجيفهم
إليك ولولا أنت لم يوجف الركب
بثينة ما فيها إذا ما تبصرت
مصاب ولا فيها إذا نسبت أشب
لها النظرة الأولى عليهم وبسطة
وإن كرت الأبصار كان لها العقب
إذا ابتذلت لم يزْرها ترك زينة
وفيها إذا ازدانت لذى نيقة حَسْب

لو أننى أردت أن أقص عليك هذه القصة لقلت لك فى ذات ليلة جفانى النوم والناس جميعاً نيام ورحت أفكر و . . .

أما هو فصرخ فجأة ألا أيها النوام ويحكم هبوا . . إنه فجأة اكتشف الأمر الخطير وراح يوقظ الناس ويسألهم هل يقتل الحب الرجل . وأجابوه – نعم ويسل عظامه ويتركه حيران ليس له لب ولا عقل . . .

وكأنما استراح إلى هذا الرأى وعلمأنْ لابأس به إذن أنْ ينتظر الموت مادام يحب بهذا العنف فهو ربما يجعل الركب يجرى راكضاً إلى بثينة ،

ولولا بثينة ما جرى الركب . بثينة التى لا عيب فيها إذا وقعت عليها العين ولا خلط فى أنسابها إذا هى انتسبت . إذا رأتها عين بين نساء غيرها كانت النظرة الأولى من نصيبها ، وما تلبث العين أن تعود إليها ، فليس بين النساء من تستحق النظرة إلا هى . تبده بجمالها فتلقف العين حين تمر العين مروراً سريعاً ، وتقتنص النظر إذا أرادت العين أن تنعم النظر ، وإذا لبست ملابس البيت لا ينقص جمالها تركها للزينة ، وإن تجملت فهى المثل الأعلى للأناقة . قصة وصفية من خيرة القصص الوصفية ، وصف نفسه ومشاعره ووصف الركب فى طريقه إليها ، ووصف جمالها وحسبها ، ووصف العين ناظرة إليها ، ووصفها فى بيتها بلا زينة ثم وصفها وهى فى كامل زينتها . ويظل حب جميل يمتطى الأجيال حتى أدركنا فى عصر الذرة والصعود إلى القمر . وهذا التقدم العلمى الذى يذهل العلماء والذى ما كان ليخطر على بال جميل ولا معاصريه . أليس هذا دليلاً على أن العالم مهما يتقدم فى علمه يظل محتاجاً إلى الحب والفن والجمال .

وقد سألنى مرة سائل : ما دور الأدب فى حياة العلم هذه التى تطالع العالم ؟ فلم أزد على أن قلت : لو لم يكن له دور ما بقى . وهل أدل على بقائه . وثبوته فى البقاء من أننا لا نزال نتحدث عن جميل وبثينة ؟ .

استمع معى إلى هذه القصة المكتملة من شعر جميل :

مازلت أبغى الحى أتبع فلهم   حتى دفعت إلى ربيبة هودج
فدنوت مختفيًا ألم ببيتها   حتى ولجت إلى خفى المولج

قالت وعيش أبى وحرمة والدى لأنبهن الحى إن لم تخرج
فخرجت خوف يمينها فتبسمت فعلمت أن يمينها لم تحرج
فتناولت رأسى لتعرف مسه بمخضب الأطراف غير مشنج
فلثمت فاها آخذاً بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

ما أظننى فى حاجة إلى أن أتتبع سير القصة فهى كاملة . إنه رجل راح يتتبع آثار حبيبته حتى عثر عليها ، فراح يتخفى عن العيون حتى بلغ البيت ودخله دخولاً رفيقاً متخفيًا . فإذا حبيبته تثور به أن اقتحم عليها المنزل ، فهى تلقى الإيمان أنها فاضحته إذا لم يخرج . فإذا هو يخشى أن تنفذ وعيدها ، فيوشك أن يخرج خوف يمينها ، ولكنه فى نظرة الوداع الأخيرة يرى طيف ابتسامة على فمها فأيمانها إذًا غير محرجة ، وهى لن تفضحه ، وإنما هى تمد بيدها تتلمس رأسه ويتم اللقاء . إنها قصة تحمل العوامل النفسية لكل حركة فيها . كاملة لا ينقصها شىء .

ثم استمع معى إلى هذه القصة الطويلة التى يدور فيها الحوار بين الحبيبين أجمل ما يكون الحوار ، حتى إذا أحس أنها توشك أن تقسو عليه راح يروى ذكرياته كأنما لا يريد إلا إزجاء الحديث إزجاء على حين أنه فى الواقع يستمنح الحبيب العطف والرضا :

أمن آل ليلى تغتدى أم تروح وللمغتدى أمضى هموماً وأسرح
ظللنا لدى ليلى وظلت ركابنا بأكوارها محبوسة ما تسرح
إذا أنت لم تظفر بشىء طلبته فبعض التأنى فى اللبانة أنجح

وقامت تراءى بعدما نام صحبتى ... لنا وسواد الليل قد كاد يجلح

وإنى وإن لم تسمعى لمقالتى ... لأحمد نفسى فى التنائى وأمدح

وبثنة قد قالت . . وكل حديثها ... إلينا – ولو قالت بسوء – مملح

* * *

تقول بنى عمى عليك أظنه ... وأنت العدو المسرف المتنطح

وقالت : عيون لا تزال مطلة ... علينا وحولى من عدوك كشح

إذا جئتنا فانظر بعين جلية ... إلينا ، ولا يغررك من يتنصح

رجال ونسوان يريـدون أننى ... وإياك نخزى يابن عمى ونفضح

وقالت : تعلم أن ما قلت باطل ... أيادى سبا منهن إن كنت تمزح

وحولى نساء إن ذكرت بريبة ... شمتن وما منهن إلا ستفرح

أمن أجل أن عجنا قليلا ولم نقل ... لليلى كلاماً – لا أبالك – تكلح

فمت كمداً . أو عش ذميماً فإنها ... جيوب لليلى تحفظ الغيب نصح

* * *

سلوا الواجدين المجربين عن العدى ... وذو البث أحياناً يبوح فيصرح

أتقرح أكباد المحبين كالذى ... أرى كبدى من حب بثنة يقرح

فوالله ثم الله إنى لصادق ... لذكراك فى قلبى ألذ وأملح

من النسوة السوء اللواتى أمرننى ... بصرمك إنى من ورائك منفح

لقد قلن مالا ينبغى أن يقلنه ... وينضحن جلداً لم يكن فيك ينضح

* * *

ووالله ما أدرى أصرم تريده بثينة أم كانت بذلك تمزح
عشية قالت : لا يكن لك حاجة رأيتك تأسو باللسان وتجرح
فقلت أصرم أم دلال وإن يكن دلالاً فهذا منك شيء مملح
فإني عرضت الود حتى رددته وحتى لحى فيك الصديق الكشح
ذكرتك يوم النحر يابثن ذكرة على قرن والعيش بالقوم جنح
ويوم وردنا الحجر يابثن عادنى
لك الشوق حتى كدت باسمك أفصح
وليلة بتنا بالجنينة هاجنى سنا بارق من نحو أرضك يلمح
قعدت له والقوم صرعى كأنهم لدى العيس بالأكوار خشب مطرح
أراقبه حتى بدا مبتلج
من الصبح مشهور وماكدت أصبح

أرأيت هذا الحوار وهذا النصح وهذه الذكريات ، قصة كاملة من قصص الحب تمتزج فيها العاطفة المشبوبة بالعقل والحكمة ، وحين يثور القلب على كل حكمة ويلجأ الشاعر إلى حبه وحده تحاول أن تصده ، فيحكى لنا أنه قال : أصرم ذلك ؟ ، أقطيعة تريدينها أم الدلال ؟ فإن يكن دلالاً – وكم أرجو أن يكون – فما أملحه منك وما ألطفه . . لقد والله ذكرت الأيام الماضية ذكرت يوم النحر ويوم وردنا الحجر وبتنا بالجنينة . . إنه يريد أن يطمئن نفسه أنه الدلال وليست القطيعة . . إن كل ذى قلب أحب يدرك هذه القصة ويدرك العوامل النفسية التى تقف

وراء كل كلمة فيها .

ولو تركنا النفس على سجيتها لظللنا مع جميل لا نتركه ، ولكن هنالك شعراء آخرين أغنوا الشعر العربى بقصصهم ، ولابد لنا أن نلاقيهم ، فإلى شاعر جديد .

القصة فى شعر امرئ القيس

وماذا علينا لو ضربنا فى أغوار الزمن البعيد ننظر معًا هل استطاعت الجاهلية أيضاً أن تقدم شعراً ؟ وماذا عليها إن فعلت ؟ فلا الجاهلية ولا الشعراء الذين جاءوا بعد الدين الحنيف قصدوا أن يكتبوا قصة فيما ينظمون من شعر ، بل إن فكرة القصة لم تكن لترد على أذهانهم جميعاً .

فلنلق نظرة على بعض من شعر امرئ القيس . ولعل قصة امرئ القيس نفسها جديرة بأن تروى . فهى من أمتع ما جاء به تاريخ الشعراء العرب . فأبو امرئ القيس هو حجر بن الحارث وقد كان ملكاً على بنى أسد وغطفان . وكان امرؤ القيس يحب أن يشرب الخمر ويصحب النساء ويقول الشعر . وكان أبوه يكره منه هذا جميعه ويضيق به ، حتى لقد أمر أحد أتباعه آخر الأمر أن يذهب به فيذبحه ويأتى له بعينيه . ولكن التابع كان أحصف من أن ينفذ أمر الملك . فترك امرأ القيس خبيئاً ، وذبح جؤذرا وجاء بعينه إلى الملك . فندم حجر على ذلك فبشره التابع أنه لم يقتل ولده . فأمره بأن يأتيه به من فوره . فأتى به ، وصفح الأب ، ولكن الابن ظل على قول الشعر ، وصحبة النساء ، وشرب الخمر ، فأمر به أبوه وطرد . وعاش حياة نكدة ، وقاسى الأهوال

حتى قتل أبوه ، ولم يهب أحد من أبنائه الآخرين لينال الثأر . فوقع الثأر على امرئ القيس ، وقد قيل إنه حين وجد نفسه مطالباً بنيل الثأر لأبيه ، قال : «ضيعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ، ولا سكر غداً ، اليوم خمر وغداً أمر» . وآلى ألا يأكل لحماً ، ولا يشرب خمراً ، ولا يدهن بدهن ، ولا يصيب امرأة ، ولا يغسل رأسه حتى يقتل من بنى أسد الذين قتلوا أباه مائة .

وقد استطاع امرؤ القيس أن ينال ثأره ، ولكنه قتل عن طريق آخر ، غير طريق الثأر ، فقد قيل إنه خرج إلى أرض الروم يطلب الحماية من القيصر بوستنيانوس ، ولكنه أحب ابنته فأحبته ، وسمع القيصر ، فأجمع أمره على قتله ، فهرب امرؤ القيس ، ولكن تابع القيصر أدركه عند أنقرة ، وقال له إن الملك كان يريده لينعم عليه بحلة جديدة ، وقدم رسول القيصر الحلة إلى امرئ القيس فإذا هى مسممة ، وكان الجو حارًّا فساعد العرق السم أن يسرى سريعاً ، ومات امرؤ القيس .

ألست ترى فى حكاية أمر الملك أن يقتل ابنه . فيعدل التابع عن تنفيذ الأمر ، ملامح القصص الغربى العالمى ، الذى جعل من هذه الواقعة أساساً لكثير من الأعمال القصصية العالمية ، بل من قصص الأطفال أيضاً ، ترى هل تكررت القصة فى حياة ملوك الغرب فاستلهمها كتاب القصة ، أو هم نظروا إلى تاريخنا العربى واستوحوا منه ؟ لا أدرى .

بنا الآن إلى شعر امرئ القيس نتتبع أثر القصة فيه ، وما أظنك ستنتظر من امرئ القيس قصة ذات بداية وعقدة ونهاية ، فهو أولاً وأخيراً لم يقصد أن يروى لك قصة ، وإنما هو يحكى لك شيئاً مما وقع له ، فى أسلوب قصصى ، ونأتى فى عصرنا هذا لنجد فيما حكى أثراً لفن القصص ، ونستخلص أن هذا الفن جزء من النفس الإنسانية ، تنشئه إنشاء إن لم تكن تعرفه ، وقد تطور هذا الفن فى الشعر العربى حتى أصبح قصصاً مكتملاً فى العصور التى تلت عصر امرئ القيس .

يقول امرؤ القيس :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت — تعرض أثناء الوشاح المفصل

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها — لدى الستر إلا لبسة المتفضل

فقالت : يمين الله مالك حيلة — وما إن أرى عنك الغواية تنجلى

خرجت بها أمشى تجر وراءنا — على أثرينا ذيل مرط مرجل

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى — بنا بطن خبت ذى عقاف عقنقل

إذا التفتت نحوى تضوع ريحها — نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

إذا قلت هاتى نولينى تمايلت — علىّ هضيم الكشح ريا المخلخل

مهفهفة بيضاء غير مفاضة — ترائبها مصقولة كالسجنجل

وأعتقد أنه لابد لنا أن نقدم هذه الألفاظ التى اعترضت طريقنا ونحن نقرأ القصة ، فالكلام لامرئ القيس ، وليس بالهين أن تقرأ امرأ القيس ، ولا تتعثر فى ألفاظه ، أما الثريا فهى نجم ، ونضت الثوب

خلعته ، وأما لبسة المتفضل ، فهى ما يلبس عند النوم ، ولعلها من أجمل التعبيرات العربية ، وأما المرط الذى يجرجر فهو الثوب من الحرير والمرجل هو المخطط ، وانتحى معناها قصد ، والقفاف ماخشن من الأرض وارتفع ، وأما العقنقل التى لاشك صكت البصر ، فهى الرمل الكثير المنعقد بعضه على بعض ، ولعلك لاحظت معى أن جرس اللفظة العربية قريب دائماً مما تؤديه من معنى ، وفى هذين اللفظين الأخيرين خير دليل على ذلك . أما المهفهفة فهى ذات البطن الضامر ، ولعلها أيضاً تذكرنا بجرس اللفظة ومعناها والمفاضة هى ذات البطن الكبير ، والترائب هى النحر ، وهو موضع القلائد ، أما السجنجل فهى المرآة .

أين القصة إذن ؟ إنه يروى عن مغامرة غرامية له ، وهو يبالغ فى الوصف شأن الفن الواقعى الذى لم يظهر فى الأدب إلا فى القرن التاسع عشر . وبطبيعة الحال لا تنتظر أن يكون واقعيًّا فى الأحداث ، إنما لابد له أن يقول إن المرأة مهما يكن من جمالها فهى لا تستطيع أن تقاوم أسره وفتنته ، وأنت لاشك تعرف أن الأغلبية الكاثرة من الشعر العربى ، كانت تكتسب جمالها من مقدار الكذب ، الذى كان يضفيه الشاعر على ما ينظمه ، وقد عاشت الأجيال تستمتع بهذا الكذب المنظوم ، بل إنها عاشت لا تقبله إلا منظوماً .

القصة فى شعر عمر بن أبى ربيعة

لعل عمر بن أبى ربيعة هو أول شاعر فى العربية أحب الحب لذاته ، وعشق الهوى نفسه دون أن يثبت على حب واحدة بذاتها ، كما فعل مجنون ليلى ، وكثير عزة وجميل بثينة . فعمر بن أبى ربيعه أحب الكثيرات ، وغنى الحب لجيله وللأجيال بعده ويبدو لى أن عمر أحب الشعر كما أحب الحب ، ولم يكن عمر شاعراً فقيراً يتكسب بالشعر ويدور به على ذى الوجاهة والغنى ، فهو ينتسب إلى قريش وحسبه هذا نسبًا ، وهو غنى موفور ، فالفن عنده للفن ، وإن كانت الأجيال التى تلت جيل عمر قد أحبت الفن ، وفكرت أنه قد يجلب إليها نباهة الذكر ، وبعد الصيت ، فما أظن هذا المعنى قد خالط حب عمر لفنه ، فقد كان نابه الذكر ، بحكم انتسابه إلى أشرف بيت عرفه العرب ، وقد كان يستطيع أن يوفد الشعراء فيتغنوا به ، ولكنه أراد هو أن يتغنى ، فغنى أعذب الغناء وأجمله وأرقه .

وقد كان عمر فى مولده قريباً من عام هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد ولد عمر فى عام ثلاثة وعشرين للهجرة وتوفى سنة ثلاث وتسعين ، فهو إذن من شعراء صدر الإسلام ،

الذين تأثروا بالشعر الجاهلى أعظم التأثر ، ولكن فى رهافة حس ، ونقاء فنى مشرق ، تخلص من ألفاظ الجاهلية الصعبة وجاء شعره كالنبع الرقراق الصافى . وفى هذه المحاولة التى نحاولها ، سنجد أن عمر بن أبى ربيعه من أعظم الشعراء الذين أحسنوا فن القصة ، وقدموا منها الكثير فى قصائدهم .

وقد استطاع عمر بعذوبته ، أن يفرض نفسه على جيله وعلى الأجيال بعده ، حتى يومنا هذا ، وإن الكثير مما نردده فى حياتنا اليومية ، ينتسب إلى عمر لما فى ألفاظه من موسيقى ، وفى نظمه من إحكام ، فلا تحس عنده لفظة تريد أن تنبو عن مكانها ، ولا قافية غير مطمئنة فى بيتها .

ولعل قصيدته (أمن آل نعم) من أعظم القصائد التى ثبتت دعائم القصة فى الشعر العربى ، ولعلها هى وبعض قصائد أخرى لعمر التى أوحت إلىَّ أن أتتبع القصة فى الشعر العربى قدر الجهد ، وقد وقعت فى يدى نسخة من ديوان عمر بن أبى ربيعة . أشرف عليها بشير يموت ، ووجدته يقول فيما قدم به الديوان : «وإنك لتجد له فى قصيدته (أمن آل نعم) قصة لو تجرد لها قلم كاتب روائى ، لأخرج منها رواية ، لا تجد أبدع منها ولا أوفى فى بابها ، فى أسلوب ما يعرفه رمبو ولا دى موسيه ولا غيرهما من معبودى الفتيان المتفرنجين» . وهكذا كان عجيبًا أن ينظر إلىَّ شارح الديوان ، من وراء عام أربعة وثلاثين وتسعمائة وألف ، ليجدنى أحاول أن أقدم القصة فى شعر عمر بعد ذلك بأربعين عاماً .

والآن فلنردد معاً قصيدة أخرى لعمر بن أبى ربيعة ، ولست بمحتاج أن أشير لك إلى مقدار العذوبة والرقة التى تتمتع بها ، وإنى لمنتقل بك بعد ذلك إلى قصيدة أمن آل نعم ، ولكن يطيب لى أن أقدم هذه أولاً بين يديك ، وإنك لواجد أن القصة فيها لا تحتاج إلى إشارة :

أرسلت خلَّتى إلىَّ بأنا — قد أتينا ببعض ما قد كتمتا
وبهجرانك الرباب حديثاً — سوءة يا خليل ما قد فعلتا
وهجرت الرباب من حب سعدى — ونسيت الذى لها كنت قلتا
ولعمرى ليحسنن عزائى — عنك إذ كنت غيرها قد ألفتا
وكأنى قد كنت أعلم أنى — لست إلا كمن به قد غدرتا
غير أن قد غدرتنى قبل خُبْرٍ — فوجدناك كاذباً إذ خبرتا
أين أيمانك الغليظة عندى — ومواثيق كلها قد نقضتا
لا تخون الربابَ مادمت حيا — يا ابن عمى فقد غدرت وخنتا
وأتيت الذى أتيت بعمد — لم تهبنا لذاك ثم ظلمتا
إن تجدَّ الوصال منك فإنا — قبح الله بعدها من خدعتا
من كلام تهزه وبحلف — فلعمرى فربما قد حلفتا
ثم لم توف أو خلفت بعهد — بئس ذو موضع الأمانة أنتا

أتراك تلمح قصة الحبيب الغادر وكيف اكتملت فى هذه الأبيات ، وكيف رواها لك على لسان خليلته ، وتحس برنة الاعتزاز ، إنه غادر

لا يقيم على عهد ، ولا يبقى على أيمان كثيرة ماكثرت هذه الأيمان ، وغليظة ما غلظت .

أين أيمانك الغليظة عندى ومواثيق كلها قد نقضتا
لا تخون الرباب مادمت حيًّا يا ابن عمى فقد غدرت وختنا

هذه الأيمان التى كنت تقسمها ألا تخون الرباب مادمت حيًّا ، فقد غدرت وخنت فبئس ذو موضع الأمانة أنت، والشاعر سعيد تترنح نغمات السعادة فى أبياته جميعاً أنه غير وفى ، إنه يمثل لنا فالنتينو وكازانوفا ودون جوان ، وكيف كان اعتزازهم أنهم لا يبقون على حب واحد ، وهكذا كان عمر بقصصه الشعرى ، يمثل حالة غريبة على عصره ، فحين كان جميل والمجنون وقيس ، يشببون بفتاة واحدة ، يرون الدنيا جميعها فيها ، ينتقل عمر بن أبى ربيعة بين الفتيات خفيف القلب ، رقيق الشعر ، سعيداً أنه يغدر بالفتاة ، قبل أن تغدر به ، ولا يراعى فى ذلك عهداً ، ولا ميثاقاً ، واثقاً أنها هى أيضاً ، لن ترعى عهداً أو ميثاقاً إذا طال الأمد بحبهما .

والآن بنا إلى قصيدته الشهيرة (أمن آل نعم) .

إن أكثر ما أخافه وأنا مقدم على قصيدة «أمن آل نعم» ألا أجد شيئًا أقدمها به ، ولا أجد شيئًا أعلق به على أبياتها ، فالقصيدة قصة كاملة ، وإن شئت أن تتناول خيوطها وتنسج لاستطعت أن تخرج برواية . وألفاظها سهلة ميسورة ، قريبة المعانى ، لا تكاد تحتاج إلى أى تعليق ،

ومع ذلك فماذا علينا أن ننظر فى أبياتها معاً ، ثم نرى ماذا نستطيع أن نقول .

القصيدة طويلة ، وقد اخترت أن أجمع منها ما يكون القصة ، وهكذا حولتها فى هذا الاختيار من القصص الواقعى القديم إلى القصص الواقعى الحديث ، فقد كان القديم يعنى بالتفاصيل والوصف الدقيق ، وحين تطورت نظرية الأدب الواقعى ، أصبحت الخطوط القليلة تكون الصورة ، دون كبير عناية بالتفاصيل ، وهكذا أصبحت قصيدة أمن آل نعم بعد أن حجبت منها بضعة أبيات فى الوصف :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ... غداة غد أم رائح فمهجر
لحاجة نفس لم تقل فى جوابها ... فتبلغ عذراً والمقالة تعذر؟
تهيم إلى نعم فلا الشمل جامع ... ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر
ولا قرب نعم إن دنت لك نافع ... ولا نأيها يسلى ولا أنت تصبر
إذا زرت نعماً لم يزل ذو قرابة ... لها كلما لاقيتها يتنمر
عزيز عليه أن ألم ببيتها ... يسر لى الشحناء والبغض يظهر
ألكنى إليها بالسلام فإنه ... يشهَّر إلمامى بها ويُنكَّر
بآية ما قالت غداة لقيتها ... بمدفع أكناف أهذا المشهر؟
قفى فانظرى أسماء هل تعرفينه ... أهذا المغيرى الذى كان يذكر؟
فقالت : نعم لاشك غير لونه ... سرى الليل يحيى نصه والتهجر

أو رأيت كيف استطاع فى هذه الأبيات القليلة أن يروى لنا صلته

القديمة بها ، وكيف قامت العداوة والبغضاء بينه وبين أهلها ، ثم كيف طال البعاد بينهما ، وكيف هى من حبه حتى لتقول لرفيقتها إنه هو وقد حال لونه وتغير من طول ماسرى فى الليل ومشى فى هجير الشمس وحرها ، ولو أراد القاص المتمكن أن يقدم لك هذا التاريخ جميعه ما استطاع أن يقدمه فى أبرع ولا أروع من هذه الصورة ، فهو يتنقل من لغة المتكلم إلى لغة الحوار فى مقدرة فائقة ، حتى ما تكاد تحس بهذا التنقل . ثم هو يومئ إلى القصة بهذه البغضاء التى يكنها له بعض أهل حبيبته ، وكأن هذه البغضاء خبر يتلى ولا صلة له بعقدة القصة . وهكذا يفعل القصصى البارع ، فهو لا يكشف عن النهاية ومع ذلك لابد له أن يومئ بها إيماء حتى لا تجئ النهاية مفاجئة ، ولنمض معاً إلى بقية الأبيات :

وليلة ذى دوران جشمتنى السرى ... وقد يجشم الهول المحب المغرر

فبت رقيباً للرفاق على شفا ... أحاذر منهم من يطوف وأنظر

إليهم متى يستمكن النوم منهم ... ولى مجلس لولا اللبانة أوعر

وبت أناجى النفس أين خباؤها ... وكيف لما آتى من الأمر مصدر

أرأيت هذه الحيرة التى تتردد فى نفسه؟ إنها التشويق من الكاتب القصصى القادر ، ولا يطيل من هذه الحيرة شأن الكاتب المترفع الذى يعف عن تقديم التشويق للتشويق ، فيسوقه فى خيوط القصة سرًّا وكأنه لا يريده لذاته .

فدل عليها القلب ريّا عرفتها ... لها وهوى النفس الذى كاد يظهر

وهكذا يعود كاتباً قصصيًّا رومنسيًّا ، لقد عرف الخباء بعبق يعرفه من فتاته ، ويهوى قلبه الذى يكنه لها .

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت   مصابيح شبت بالعشاء وأنؤر
وغاب قمير كنت أهوى غيوبه   وروح رعيان ونوم سمر
وخفض عنى الصوت أقبلت مشية الـ   ـحباب وشخصى خشية الحى أزور

أرأيت القصاص كيف يرسم صورته حين اطمأن أنه يستطيع أن يذهب إلى ضحيتها التى عرفها برباها وحبه قام يمشى كأنه الحباب ملتفتاً إلى الحى محاذرة أن يراه أحد وهو فى طريقه إليها . صورة فنية كاملة . ودون أى مقدمات .

فحييت إذ فاجأتها فتولهت   وكادت بمكنون التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان فضحتنى   وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أريتك أو هنا عليك ألم تخف   رقيباً وحولى من عدوك حضر
فوالله ما أدرى أتعجيل حاجة   سرت بك أم قد نام من كنت تحذر
فقلت لها بل قادنى الشوق والهوى   إليك . وما نفسى من الناس تشعر
فقالت وقد لانت وأفرخ روعها   كلاك بحفظٍ ربك المتكبر

* * *

فبت قرير العين أعطيت حاجتى   . . . أقبل فاها فى الخلاء فأكثر
وترنو بعينيها إلىَّ كما رنا   إلى ظبية وسط الخميلة جؤذر
فما راعنى إلا منادٍ ترحلوا   وقد لاح معروف من الصبح أشقر

فلما رأت من قد تنبه منهم ... وأيقاظهم قالت : أشرْ كيف تأمر
فقلت : أُباديهم فإما أفوتهم ... وإما ينال السيف ثأراً فيثأر
فقالت : أتحقيقاً لما قال كاشح ... علينا وتصديقاً لما كان يؤثر
فإن كان مالابد منه فغيره ... من الأمر أدنى للخفاء وأستر
أقصّ على أختيَّ بدء حديثنا ... ومالى من أن تعلما متأخر

* * *

فقامت كئيباً ليس فى وجهها دم ... من الحزن تذرى دمعة تتحدر
فقامت إليها حرتان عليهما ... كساءان من خزدمقس وأخضر
فقالت لأختيها أعينا على فتى ... أتى زائراً والأمر للأمر يقدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا ... أقلى عليك اللوم فالخطب أيسر
فقالت لها الصغرى سأعطيه مطرفى ... ودرعى وهذا البرد إن كان يحذر
يقوم فيمشى بيننا متنكراً ... فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجنى دون من كنت أتقى ... ثلاث شخوص كاعبان ومعصر
فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى ... أما تتقى الأعداء والليل مقمر
وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً ؟ ... أما تستحى ؟أو ترعوى ؟أو تفكر ؟
إذا جئت فامنح طرف عينك غيرنا ... لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر
فآخر عهد لى بها حين أعرضت ... ولاح لها خد نقى ومحجر

أرأيت أجمل من هذا قصصاً متكاملاً ؟ . . ألم تتلاحق أنفاسك حين أسفر الصبح ووجده بين القبيلة ؟ ثم ألم تهدأ أنفاسك والأختان

٢٥

تؤنبانه . . . لقد انتهت المشكلة فهما تريدان منها أن تكون له رادعاً فيرعوى . . .

أترانى أحتاج إلى تعليق . . . أما أنا فلا تعليق عندى . . . فهل لديك أنت تعليق غير الاستحسان ؟ .

قصص قصيرة فى شعر عمر

إن الناظر إلى شعر عمر يجد عنده مجموعة من القصص القصيرة الممتعة ، ومعروف أنه يجمل بالقصة القصيرة أن تكون قليلة الأشخاص ، متحدةٍ فى الزمن ، أى لا يتباعد الزمن بين أطرافها ، ويجمل بها أن تركز تركيزاً يوشك أن يكون كاملاً على الومضة التى لمحت فى ذهن الكاتب ، لننظر معاً هل فيما وقعت عليه من القصص القصيرة عند عمر بن أبى ربيعة مثل هذا . . . ؟

•

يقال إن عمر حين علت به السن أقسم لا يقول بيتاً من الشعر إلا أطلق جارية من جواريه ، وفى يوم وجد حبيبين يتناجيان فسألهما لماذا لا تتزوجان ؟ فقال الشاب : إن أبا الفتاة يطلب مهراً كبيراً فقال عمر : بنا إليه ، ودفع مهر الفتاة ، وتزوج الحبيبان ، وأحس عمر بالشعر يثور به فتوزعت نفسه بين أن يقول فيحنث بالقسم وبين أن يكتم هذا المرجل الذى يغلى فى صدره . . .

ورأت جاريته المقربة ما هو فيه من حيرة فسألته عما به فلم يطق صبراً وانفجر بالشعر :

تقول وليدتى لما رأتنى | طربت وكنت قد أقصرت حيناً
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً | وهاج لك الهوى داء دفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاء | إذا ما شئت فارقت القرينا
بربك هل أتاك لها رسول | فشاقك أم لقيت لها خدينا ؟
فقلت : شكا إلىَّ أخ محب | كبعض زماننا إذ تعلمينا
فقص علىَّ ما يلقى بهند | فذكر بعض ما كنا نسينا
وذو الشوق القديم وإن تعزى | مشوق حين يلقى العاشقينا
وكم من خلة أعرضت عنها | لغير قلى وكنت بها ضنينا
أردت فراقها وصبرت عنها | ولو جن الفؤاد بها جنونا

وأطلق تسع جوار ، لقد كان يريد أن يعيش للفن ، بل إننى أحسب أنه ما أحب ولا غامر إلا ليقول الشعر . . .

تراك هل لاحظت القرشى الأصيل يعف عن أن يذكر ما قدمه من المال إلى العاشقين .

وإنما يذكر هذه النبضات التى تذكر بها بعض زمانه . . ثم هذا البيت الذى مازال صداه يرن فى سمع الأجيال حتى اليوم . .

وذو الشوق القديم وإن تعزى | مشوق حين يلقى العاشقينا

معى إذاً إلى قصة أخرى . . وهى لا تحتاج إلى مقدمات :

أرسلت هنـــد إلينـــا رسولا
عـــاتبـــاً أنْ مـــالنـــا لا نراكا ؟

فيم قد أجمعت عنا صدوداً ‏ أأردت الصدام أم ما عداكا
إن تكن حاولت غيظى بهجرى ‏ فلقد أدركت ما قد كفاكا
كاذباً قد يعلم الله ربى ‏ أننى لم أجن ما كنه ذاكا
وألبى داعياً إن دعانى ‏ وتصامم عامداً إن دعاكا
وأكذب كاشحاً إن أتانى ‏ وتصدق كاشحاً إن أتاكا
إن فى الأرض ساحاً عريضاً ‏ ومناديح كثيراً سواكا
غير أنى فاعلمن ذاك حقًّا ‏ لا أرى النعمة حتى أراكا
قلت مهما تجدى بى فإنى ‏ أظهر الود لكم فوق ذاكا
أنت همى وأحاديث نفسى ‏ ما تغيبت وإذ ما أراكا

وتستطع أن ترى فى هذه الأبيات صورة من أوضح الصور للقصة الحوارية فلقد ردت الأبيات موقفه الذى تأخذه عليه حبيبته وغضبها ثم حبها ، فهى قائلة له إن الأرض واسعة وبها مناديح كثيرة سواه ، ولكنها لا تحب من الأرض ، ومن هذه المناديح إلا هو ، ويعطف هو على هوى حبيبته . .

ولا أستطيع أن أترك عمر بن أبى ربيعة ، ولا أذكر قصيدته الرائعة التى يتعلق بها – فيما يروى الرواة – حدث من أهم الأحداث فى حياة الدولة العباسية . . وما إخالك إلا عرفت الأبيات :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد ‏ وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة ‏ إنما العاجز من لا يستبد

زعموها سألت جاراتها وتعرت ذات يوم تبترد
أكما ينعتنى تبصرننى عمركن الله ام لا يقتصد ؟
فتضاحكن وقد قلن لها حسن فى كل عين من تود
حسد حملنه من شأنها وقديماً كان فى الناس الحسد
ولقد أذكر إذ قلت لها ودموعى فوق خدى تطرد
قلت من أنت فقالت أنا من شفه الوجد وأبلاه الكمد
نحن أهل الخيف من أهل منى ما لمقتول قتلناه قود
قلت أهلا أنتم بغيتنا فتسمين فقالت أنا هند
إنما أهلك جيران لنا إنما نحن وهم شىء أحد
حدثونى أنها لى نفثت عقداً يا حبذا تلك العقد
كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت بعد غد

أليست هذه مجموعة قصص كاملة . . قصة الغيرة بين الفتيات ، وقصة الحب ونشأته ؛ أتراك لاحظت ما يقوله عن صلته بأهلها ، ألا ترى مثل هذا فى حياتنا العادية حين يحاول الفتى أن يتقرب من فتاة ، فيخلق صلات بينهما قديمة ، ويقول لها إن أهله وأهلها شىء واحد ، ثم أترى إلى قرير الشاعر وكيف يذكر أن حبيبته تستعين عليه بالسحر وهو سعيد بسحرها هذا ، ثم البيت الأخير الذى يشبه قصة صاحب المطعم الذى علق لافتة تقول من يأكل اليوم ويدفع بأكل غداً مجاناً ، وترك اللافتة معلقة فلم يأت هذا الغد أبداً ، كلما قلت متى ميعادنا ضحكت

هند وقالت بعد غد . .

أما ما قيل عن أثر هذه القصيدة فى التاريخ فإنه يروى أن إسحق الموصلى غنى أمام هارون الرشيد : واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد ، وظل يطرب فيها ويعيد ويزيد ، ثم يروى أن الرشيد ظل يردد إنما العاجز من لا يستبد حتى أنزل بالبرامكة ما أنزله . .

أليس عجيباً أن يكون هذا الشعر الرقيق الغزل العذب سبباً فى نكبة ؟ ولكن الناس لا يستطيعون فى شرهم أن ينأوا عن مواطن الجمال فى الحياة ، فإذا هم يجعلون منها ظلماً واستبداداً ، علم الله لو كان عمر يدرى أنه يقول هذا الشطر لغير الفن والجمال ما قاله ، فما قصد استبداد الكاره بل استبداد المحب ، وما قصد استبداد الرشيد ، بل استبداد هند .

القصة في شعر عنترة

إن عنترة بن شداد كان يعيش مأساة هى حبه لعبلة ، لا يجرؤ أن يتقدم للزواج منها ، حتى ظهر شأنه فأظهر حبه ، وظل وفيًّا على هذا الحب ما امتدت به الحياة .

وقبل أن نعرض للقصة فى شعر عنترة لا بد لنا أن نتعرف على لون من القصة القصيرة وهى تحبو إلى مكانتها فى عالم الأدب . .

تلك هى القصة الوصفية التى تعتمد على تقديم الصورة الفنية دون كبير عناية بالتمهيد والعقدة والحل ، وقد طالعنا الأدب العربى والغربى على السواء بنماذج شتى من هذا النوع من القصص . .

فإذا قرأنا معاً بعضاً من شعر عنترة وجدناه غنيًّا بهذا اللون . . والعجيب أننا نجد نفس هذا القصص عند المتنبى ، مع الفارق الزمنى الضخم الذى يفصل بين الشاعرين . .

وظاهرة أخرى غريبة عند عنترة ، هى أننا نجد شعره سهلاً قريب المنال ، الأمر الذى نفتقده فلا نجده عند شعراء متأخرين عنه كثيراً مثل الشاعر العملاق أبى تمام ، والآخر الشهيرابن هانئ الأندلسى ، فمن أين تأتت هذه السهولة لعنترة ، وهو ابن الجاهلية ؟ ما أحسب إلا أنه كان

شاعراً مطبوعاً لا يبحث عن الغريب ، فقد كانت الألفاظ الشعرية بين يديه هى التى تؤدى المعنى الذى يريد من أقرب طريق .

عوداً إلى مأساة عنترة والقصة الوصفية فى شعره . .

أشاقك من عبل الخيال المبهج فقلبك منه لاعج يتوهج
فقدت التى بانت فبت معذباً وتلك احتواها عنك للبين هودج
ديار لذات الخدر عبلة أصبحت بها الأربع الهوج العواصف ترهج
ألا هل ترى أن شط عنى مزارها وأزعجنا عن أهلها الآن مزعج
فهل تبلغنى دارها شدنية هملقة بين القفار تهملج

ألمح ظل ابتسامة على شفتيك . أتلك هى السهولة ، والواقع أنها بالنسبة لعنترة سهلة ، ثم ابتعد عنا استعمالها ، فصارت إلى ما صارت إليه من صعوبة ، ولا بأس عليه إن ألغز فى بيت ، فلو قد نظرت إلى الأبيات السابقة لتبينت مدى السهولة عنده على أية حال فالشدنية موضع باليمن يعرف بالإبل الجيدة ، والهملقة الخفيفة السريعة ، والهملجة السرعة فى تبختر ، ونواصل السير مع الصورة . .

وقد سرت يا بنت الكرام مبادراً وتحتى مهرى من الإبْل أهوج
بأرض تردى الماء من هضباتها فأصبح فيها نبتها يتوهج
وأورق فيها الآس والضال والغضا ونبق ونسرين وورد وموسج
لئن أضحت الأطلال منها حواليا كأن لم يكن فيها من العيش مبهج
فيا طالما مازحت فيها عبيلة ومازحنى فيها الغزال المغنج

أغن مليح الدل أحور أكحل إذا نتى الخد أبلج أدعج

آن لى أن أبتسم أنا ، أرأيت هذه الأوصاف الأخيرة وتلاحقها وليس بينها كلمة إلا سمعناها من الشعراء المحدثين . . وقبل هذا أرأيت هذه الصورة الوصفية للورود والأزهار وحنينه إلى عبيلة يمازحها هناك وتمازحه ، ولعل أروع ما قدمه عنترة إلى الشعر العربى عامة وإلى الشعر القصصى خاصة معلقته الشهيرة التى يبدؤها ببيت ما زلت أذهل كلما فكرت فيه . .

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

كيف لم يغادر الشعراء من متردم وهو بعد فى الجاهلية ؟ . فماذا نقول نحن بعد ألفى عام من مُعلقته . . إذ كان عنترة يقول إن الشعراء لم يتركوا شيئاً لأحد يقوله فماذا يفعل المشتغلون بالفن الأدبى بعد ألفى عام ، ظل الشعراء وقد انضم إليهم الناثرون والروائيون والقصاصون يقولون ولا ينقطعون عن القول ، ألست ترى معى أن المهم فى العمل الفنى لم يصبح المعنى . .

فلنقرأ معاً بعضاً من هذه القصيدة الرائعة :

أثنى علىَّ بما علمت فإننى سهل مخالقتى إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمى باسل مر مذاقته كطعم العلقم
ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجه صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر فى الشمال مقدم

فإذا شربت فإننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

* * *

يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم
ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

* * *

قصة وصفية جاهلية كاملة هذه الأبيات الثلاثة ، وامض معى قليلاً :

لما سمعت نداء مرة قد علا وابنى ربيعة فى الغبار الأقتم
ومحلم يسعون تحت لوائهم والموت تحت لواء آل محلم
أيقنت أن سيكون عند لقائهم ضرب يطير عن الفراخ الجثم
لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر فى لبان الأدهم
مازلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلىَّ بعبرة وتحمحم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمى
ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

أرأيت قصة هذا الحصان ، ورأيت هذه اللمحة العبقرية ، لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ، ثم أرأيت أسفه وسقمه من أجل حصانه الذى لم يشفه إلا قيل الفوارس ، ويك عنتر أقدم . .

قصة كاملة النبض ، كاملة الأحداث ، أخاذة الوصف .

القصة فى شعر المتنبى

كان المتنبى مشغولاً بنفسه شغلاً أخذ عليه جوانب حياته جميعاً ، وقد أصيب بالنرجسية فأكلت حياته ، وأسلمته إلى الموت أيضاً ، فقد قيل إنه هجا قوماً بقصيدته الشهيرة « لم ينصف القوم ضبة » وحين أراد أهل ضبة أن ينتقموا لها منه خرج عليه بعضهم فى الطريق ، فحاول أبو الطيب الهروب ، فقال له فتاه أتهرب وأنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فعاد إلى الحلبة ليحدث حتف شعره . .

ولا أعرف احداً جديراً بأن يصاب بالغرور والنرجسية مثل أبى الطيب المتنبى ، فالواقع أنه شاعر فذ عملاق ، تخرج على جيله كالمعجزة ، ولقد قبلنا من كثير غيره أن يكون مغروراً ، بل أحببنا هذا الغرور عند الشعراء ، فمن حق المتنبى أن يبلغ من الغرور ما يشاء ، وأن نرحب نحن بغروره هذا ، وإلا فكيف نرفض . .

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا ... بأننى خير من تسعى به قدم

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

ليكن نرجسيًّا مغروراً كما يشاء . . فقد تعب هو بغروره . . وتمتعنا نحن ، فهو الذى أراد من زمنه ذا أن يبلغه ما ليس يبلغه من نفسه الزمن ، وهو الذى دفع ثمن ما أراد ولم ينل . .

أغلب شعر المتنبى فى المديح والهجاء ، أما الفخر فيتخلل المديح والهجاء على السواء ، وهكذا كان من الصعب أن أجد عنده ما يعيننى فى هذا البحث ، وخشيت أن يخذلنى كما خذلنى أبو تمام ، الذى استعصى شعره أن يوصف بأى لون من ألوان القصص المعروفة . .

ولكن المتنبى فى آخر الأمر كان أحنى علىَّ من أبى تمام ، ووجدت عنده قصيدتين فى كل منهما لون من ألوان القصص ، أما القصيدة الأولى فهى التى يقول فيها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغير صغارها وتصغر فى عين العظيم العظائم

ويبدأ قصته بأبياته الشهيرة . .

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

ضممت جناحيهم على القلب ضمة

تموت الخوافى تحتها والقوادم

بضرب أتى الهامات والنصر غائب   وصار إلى اللبّات والنصر قادم
ومن طلب الفتح الجليل فإنما   مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم
نثرتهم فوق الأحيدب كله   كما نثرت فوق العروس الدراهم

وتلك قصة تستطيع أن تنسبها إلى الأدب الرومانى وأنت مطمئن ، فهى تصف البطولة وتبالغ فيها ما شاء الكاتب أن يبالغ . . ثم هو يصف أحداث الحرب فى دقة وإفاضة لا يصلان بها إلى الأدب الواقعى ، وإن كانا يومئان إليه إيماء فضم الجناحين على القلب ووصف الضرب الذى يبدأ بالرءوس حين النصر بعيد ، والذى ينتهى بأعالى الصدور حين النصر قادم . . هذا الوصف يوشك أن يكون واقعياً لولا مبالغة الشعر فيه . . وعلى أية حال فليس من المعقول أن يقدم إلينا الشعر قصصاً خالصاً ، وإلا أصبح نثراً لاشعر فيه ، إنما جماله أنه يجمع بين الشعر والقصة ، آخذاً من خصائص كلاَ الفنين بنصيب . .

وننتقل مع المتنبى إلى لون آخر من ألوان القصص هو التجربة الشخصية ، وإن كثيراً من الكتاب يلجئون إلى ضمير المتكلم ، ليتحدثوا عن تجربة شخصية لهم . . أو ليوهموا القارئ أنهم يقدمون له تجربة شخصية . . وهذا اللون من القصص قريب دائماً إلى نفس القارئ ، فهو يشعره أن الكاتب يصدقه القول ، ولست أدرى لماذا يحب القارئ دائماً أن يحس أن الكاتب يصدقه القول . . أغلب الأمر أنه يحس بالمتعة فى التوهم أنه الصدق ، بنا إلى المتنبى لنرى تجربته الشخصية تلك . .

أقمت بأرض مصر فلا ورائى   تخب بى الركاب ولا أمامى

ولعلك أحسست من الكلمة الأولى أنه فى سبيله أن يقص علينا شيئاً :

وملنى الفراش وكان جنبى   يمل لقاءه فى كل عام
قليل عائدى سقم فؤادى   كثير حاسدى صعب مرامى
عليل الجسم ممتنع القيام   شديد السكر من غير المدام
وزائرتى كأن بها حياء   فليس تزور إلا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا   فعافتها وباتت فى عظامى
يضيق الجد عن نفسى وعنها   فتوسعه بأنواع المقام
أراقب وقتها من غير شوق   مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر   إذا ألفاك فى الكرب العظام
جرحت مجرحاً لم يبق فيه   مكان للسيوف ولا السهام
يقول لى الطبيب أكلت شيئاً   وداؤك فى شرابك والطعام
وما فى طبه أنى جواد   أضر بجسمه طول الجمام
فإن أمرض فما مرض اصطبارى   وإن أحمم فما حمَّ اعتزامى
وإن أسلم فما أبقى ولكن   سلمت من الحمام إلى الحمام
تمتع من سهاد أو رقاد   ولا تأمل كرى تحت الرجام

وهكذا ينهى قصته بهذه الحكمة ، التى كان يصر على إيرادها كتاب القصة فى النشأة الأولى للقصة . . وترك لنا مع الإعجاب بفنه الرائع فى

الشعر تلك الدهشة أن تلتقى الفنون هذا اللقاء العجيب الذى يدل على وحدانية الخالق جل وعلا ، ووحدة الكون فى فكره ، وفى زمانه ، مهما يتباعد فكر عن فكر وزمان عن زمان . .

القصة فى شعر ابن الرومى

كان ابن الرومى أهجى شعراء عصره ، وكان لا يقف به شيء ، حتى لقد كان يتطاول على الجميع ، وكان فى عصره وزير قاس هو أبو الحسن القاسم بن عبيد الله ، وكان هذا الوزير معروفاً ببطشه وجبروته . ولكن هذا البطش وذلك الجبروت لم يمنعا ابن الرومى من هجائه ، فهجاه وأبى الوزير أن يفلته دون عقاب . وعقاب الوزير لا يجوز أن يقل عن القتل ، فهو يدس إليه أحد أعوانه فيدعوه فى مجلس الوزير إلى طعام ، ويقدم إليه الطعام مسموماً ، ويحس ابن الرومى بالسم يسرى فى جسمه فيهم بالقيام ، فيقول الوزير متشفياً : إلى أين تذهب ؟ فيقول ابن الرومى : «ما طريقى على . ار» ويخرج لينتظر الموت فى منزله ، وما هى إلا أيام حتى يوافيه ، ولابن الرومى قصص فى شعره كثير ، وغالبًا ما ينهيها بحكمة . وهذه القصص فيها القصص القصيرة كل القصر ، ومنها القصص التى تطول وتجمل فى طولها غاية الجمال .

ومن قصصه القصيرة المعجزة قصته عن شعرتين بيضاوين . ولابن الرومى أحاديث كثيرة عن الشيب ، ولكن لعل هذه الأبيات من أجمل ما قال – فهى تكوِّن قصة فيها الومضة السريعة واللفتة الذهنية الذكية ،

وفيها أيضاً الحكمة التى يحب ابن الرومى أن ينهى بها قصصه القصيرة ، وكأنه كان ينظر إلى مطالع القصة فى بواكيرها الأولى . يقول :

نظرت إلى المراة فروعتنى ... طوالع شيبتين ألمتا بى
فأما شيبة ففزعت منها ... إلى المقراض حبًّا فى التصابى
وأما شيبة فصفحت عنها ... لتشهد بالبراءة من خضابى
فأعجب بالدليل على مشيب ... أقمت به الدليل على شبابى

ويروى لك فى قصة قصيرة أخرى ما وقع له مع العمامة :

تعممت إحصاناً لرأسى برهة ... من القرطورا والحرور إذا صفع
فلما وهى طول التعمم لمتى ... فأزرى بها بعد الإطالة والقرع
عزمت على لبس العمامة . . . ... لتستر ماجرت على من الصلع
فيالك من جان على جناية ... جعلت إليه من جنايته الفزع
وأعجب شىء كان دائى جعلته ... دوائى على عمد وأعجب أنْ نفع

وننتقل من هذه القصص البالغة القصر التى نرى مثلها فى عالم القصص اليوم منتشرة على صفحات الجرائد ، وكأنى بكتابها أعجبوا بهذه الآثار لابن الرومى ، ولو أنى أشك فى ذلك شكًّا يكاد يبلغ درجة اليقين ، فكتاب القصة اليوم فى أغلب أمرهم لا ينظرون إلى تراثهم العربى ، ويأنفون أن ينسبوا أدبهم إليه لأنهم يخشون أن يتهموا بالرجعية ، فالتقدمية عندهم هى البعد عن الأدب العربى والتراث العربى ، وإنى لأعجب ماذا يبقى لهم إن هم فعلوا ، لا علينا ، بين يدى قصة

لابن الرومى كاملة لا أشك فى أنه قصد بكتابتها أن تكون قصة بل هو ينهيها كما تنتهى القصة الحديثة دون أن يقدم إليك حكمة أو موعظة ، فهى قصة تنسب إلى مذهب الفن للفن ، يقول :

كتبت ربة الثنايا العذاب   تتشكى إلىَّ طول اجتنابى
وأتانى الرسول عنها بقول   لم تبينه فى سطور الكتاب
رأيها الظالم الذى قدر الله   به فى الأنام طول عذابى
لو علمت الذى بجسمى من السقم   وضر الهوى لكنت جوابى
فتجشمت نحوها الهول والحراس   قد هموا على الأبواب
وهى فى نسوة حواسر لم   يكحلن جفناً برقدة لارتقابى
طالعات علىَّ من شرف القصر   يحاذرن رقبة البواب
ولها بينهم فىَّ حديث   جله ليته يرق لما بى
فتوقفت ساعة ثم ناديـ   ـت سلام منى على الأحباب
فتباشرن بى وأشرفن نحوى   بشهيق وزفرة وانتحاب
ثم قالت : أما اتقيت الله والنا   س فى طول هجرتى واجتنابى
قلت : ما عاق عن زيارتك الكا   س وصوت يهيج من أطرابى

قصة كاملة كما ترى . أشبه ما تكون بقصص المراهقين الذين يدلون على رفاقهم بأن من يحبون لا يطعمن النوم من شدة الحب . فإذا عرفت أن ابن الرومى لم يكن جميلاً ولا وضيئاً ولا حتى أنيقاً . أدركت أن القصة جميعها تمثل أحلام المراهقة ، ومن هنا تحس فيها بنبضة الصدق .

فالصدق الفنى شىء آخر غير الصدق الأخلاقى ، فإن الرغبة الضعيفة التى تثور فى نفس الفنان فيعبر عنها فى عمل فنى تصبح صادقة لأنها تعبر عن حالة نفسية صادقة . ولا شأن لى إذا كان ما يرويه الفنان وقع حقًّا أو لم يقع . وهكذا نجد أن ابن الرومى قد أفرغ فى هذه القصيدة كل ما كان يتمناه ولا يستطيع أن يصل إليه ، فتاته واقفة تستقبله فى موكب من فتيات أخريات وهى لا تتحدث إلا عن أملها أن يرق ابن الرومى لما بها ، وهى تقول له ألا ترعى الله فى طول هجرتى واجتنابى . ولا ينسى ابن الرومى أيضاً أن يرسم نفسه فى صورة البطل الصنديد ، فتجشمت نحوها الهول والحراس قد هموا على الأبواب . ولا ينسى أن يومئ إلينا أنها كريمة المنبت ، عريقة المحتد ، من دونها يقفُ الحراس على الأبواب .

كل هذه آمال ساقها لنا ابن الرومى فى هذه القصة الشعرية الرائعة .

ترى هل نظر ابن الرومى إلى عمر بن أبى ربيعه فى قصيدته « أمن آل نعم » ، لا عليه إن فعل ، فالفن أداء ، والمعانى قال عنها عنترة :

« هل غادر الشعراء من متردم »

* * *

القصة فى شعر البحترى

البحترى ، ذلك الصائغ العبقرى ، لم تعرف العرب قبله موسيقى كتلك الموسيقى التى يعزف بها شعره فى أناقة من الأسلوب وفى أعراس من اللفظ ، وقد التأم كلاهما على المعنى الشريف الذكى ، فكان هذا الشعر الخالد ، الذى توارثناه عن الأجيال ، أما القصة فى شعر البحترى فهى فن باذخ رفيع ، تسلل إلى شعره على غير قصد منه ، فهو يروى لك الواقعة دون أن يقصد روايتها ، وكأنه يسليك بقصته ، أو كأنه يعلم أنك تعرف القصة فهو يعلق عليها . .

اقرأ معى :

أسيت لأخوالى (ربيعة) إذ عفت ... مصايفها منها وأقوت ربوعها

بكرهى أن باتت خلاء ديارها ... ووحشاً مغانيها وشتَّى جميعها

تذم الفتاة الرود شيمة بعلها ... إذا بات دون الثأر وهو ضجيعها

حميَّة شغب جاهلى وعزة ... كليبية أعيا الرجال خضوعها

وفرسان هيجاء تجيش صدورها ... بأحقادها حتى تضيق دروعها

تقتِّل من وتر أعزّ نفوسها ... عليها بأيد ما تكاد تطيعها

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها ... تذكَّرت القربى ففاضت دموعها

شواجر أرماح تقطع بينهم ... شواجر أرحام ملوم قَطوعها
وكنت – أمين الله – مولى حياتها ... ومولاك (فتح) يوم ذاك شفيعها
لعمرى ، لقد شرفته بصنيعة ... إليهم ونعمى ظلَّ فيهم يشيعها
تألفهم من بعدما شردت بهم ... حفائظ أخلاق بطىء رجوعها
فأبصر غاويها المحجة فاهتدى ... وأقصر غاليها ودانى شسوعها
وأمضى قضاء بينها فتحاجزت ... ومخفوضها راض به ورفيعها
فقدركزت سمر الرماح ، وأغمدت ... رقاق الظُّبا : مجلوها وصنيعها
فقرت قلوب كان جمًّا وجيبها ... ونامت عيون كان نزراً هجوعها
ربطت بصلح القوم نافر جأشها ... فقرت حشاها واطمأنت ضلوعها

أليست هذه هى قصة الحرب ، الثأر منذ بدء الخليقة . . تناولها الشاعر العملاق فى سرد فنى رائع . . وفى نظرات إنسانية لماحة . . فذكر الزوجة أن با ت زوجها دون أن ينال ثأراً ، وذكر صلات القربى والرحم والرماح تقطعها بأيد ما تكاد تطيعها ، تسيل الدماء ثم تذكر القربى فتنثال الدموع . . يعرض لهذا جميعاً فى تمهيد فنى لهذا الفضل السابغ الذى أضفاه الملك حتى أقر المضطرب ، وعقد الصلح ، وتنتهى القصة بنهاية مشرفة سعيدة . . وللبحترى قصيدة تصور قصة كاملة . .

وأنا لن أقدم لهذه القصيدة وإنما سأرويها ، وهى من أشهر قصائد البحترى :

محل على القاطول أخلق داثره ... وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

ورب زمان ناعم – ثم – عهده ترق حواشيه ويورق ناضره

تغير حسن «الجعفرى» وأنسه وقوض بادى «الجعفرى» وحاضره

تحمل عنه ساكنوه فجاءة فعادت سواء دوره ومقابره

إذا نحن زرناه أجدَّ لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يبهج زائره

ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره

وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت على عجل أستاره وستائره

كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها ، والملك يشرق زاهره

ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها وبهجتها والعيش غض مكاسره

فأين الحجاب الصعب حتى تمنعت بهيبتها أبوابه ومقاصره

وأين عميد الناس فى كل نوبة تنوب ، وناهى الدهر فيهم وآمره ؟

تخفَّى له مغتاله تحت غرة وأولى لمن بغتاله لو يجاهره

ولو كان سيفى ساعة الفتك فى يدى درى الفاتك العجلان كيف أساوره

فلا مُلِّيَ الباقى تراث الذى مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره

لنعم الدم المسفوح ليلة «جعفر» هرقتم ، وجنح الليل سود دياجره

أكان ولى العهد أضمر غدرة ؟ فمن عجب أن وُلِّيَ العهد غادره !

أترى القصة تحتاج إلى تعليق ؟ ألا ترى معى فيها التمهيد والعقدة والنهاية ؟ وللبحترى بعد ذلك قصص قصيرة منها الفرس الذى أهداه له المتوكل فأرسل يقول له :

أهـــديتنى أعجـوبـــه هى فى العجائب نادرة
فرسٍ كـأن هبـوبه وشك الرياح الطائرة
فى ليلة قطع المسا فة من هنا للآخرة

وقصته مع ذلك المسافر الذى لم يستطع توديعه .

الله جارك فى انطلاقك تِلْقَاءَ شامك أو عراقك
لا تعذلنى فى مسيـ رك يوم سرت ولم ألاقك
إنى خشيت مـواقفـــاً للبين تسفح غرب ماقِك
وذكرتُ ما يجد المودِّ ع عند ضمك واعتناقك
فتركت ذاك تَعَمُّـــداً وخرجتُ أهْرُبُ من فِراقِك

القصة فى شعر حافظ إبراهيم

إذا اقتربنا إلى الشعر الحديث . . وجدنا القصة قد أخذت فيها سمات . . فنجد عند حافظ مثلاً كثيراً من الشعر يتلون بلون القصة . . وإن كانت القصة حتى ذلك الحين قد ظلت غريبة على الأدب العربى ، يتلمسها فيما كتب الغرب . . ولا ينشئها المنشئون فى الأدب العربى ، ولكن الرياح الغربية كانت قد داعبت الذوق العربى . . حتى لقد حملت حافظاً على أن يترجم البؤساء لفيكتور هيجو ، وحملت حافظاً نفسه أن يكتب ليالى سطيح قريبة كل القرب من القصة ولعل هذا الاتجاه هو الذى جعل حافظاً يداعب القصة فى شعره . . دون أن يقصد إلى ذلك قصداً عامداً . .

ولعل من طريف ما يروى عنه أنه كان ضيفاً على أبى فى البلدة ، وطلب طعاماً ، فتأخرت عليه الخادمة . . وكان اسمها فاطمة . . فلجأ إلى رئيس الخدم ، وكان اسمه أحمد ، فسارع إلى تلبية أمره فكتب هذه القصة فى بيتين . .

إذا جئتهم طالباً لقمة وجدت مظاهرة قادمة
ألا بارك الله فى أحمدٍ ولعنة ربى على فاطمة

وهى قصة يبين فيها المزاح ، وقد شاع كثير مثلها لحافظ ، من ذلك أنه كان يشرب مع أحد المشايخ الأجلاء وبعض الأصدقاء ، وفجأة جاء للشيخ من يخبره أن بعض مريديه قدموا ليؤمهم فى الصلاة ، فقام الشيخ إلى مريديه وكتب حافظ . .

الشيخ قام يصلى ونحن نسكر عنه
تقبل الله منا ولا تقبل منه

وكان معروفاً عن رشدى باشا وعدلى باشا رئيس الوزارة أن تعليمهما فرنسى ، وأنهما لا يصليان ، ولكنهما اضطرا أن يصاحبا الملك «فؤاد» فى الصلاة . . ولم يستطع حافظ أن يسكت :

عدلى يصلى ورشدى آمنت بالله ربى
يا رب أبق فؤاداً حتى يصلى أللنبى

وقد كان أللنبى المعتمد البريطانى فى مصر فى ذلك الحين . .

وفى عام ١٩٠٨ وقع فى مسينا – وهى بلدة بجنوبى إيطاليا – زلزال عنيف لا يجوز لى أن أصفه وإنما أترك حافظاً يقول :

نبئانى إن كنتما تعلمان ما دهى الكون أيها الفرقدان
غضب الله أم تمردت الأر ض فأنحت على بنى الإنسان
ليس هذا سبحان ربى ولا ذا ك ولكن طبيعة الأكوان
كنت أخشى البحار والموت فيها راصد غفلة من الربان
فإذا الأرض والبحار سواء فى خلاق كلاهما غادران

ما لمسلين عولجت فى صباها ... ودعاها من الردى داعيان
خفت ثم أغرقت ثم بادت ... قضى الأمر كله فى ثوانى
بغت الأرض والجبال عليها ... وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلى حقداً عليها فتنشقّ ... م انشقاقاً من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجماً وقذفا ... بشواظ من مارج ودخان
وتسوق البحار ردًّا عليها ... جيش موج نائى الجناحين دانى
فاستحال النجاء واستحكم اليأ ... س وخارت عزائم الشجعان
رُب طفل قد ساخ فى باطن الأرض ... م ينادى : أمى ، أبى ، أدركانى
وأب داخل إلى النار يمشى ... مستميتاً تمتد منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيه ... مروع الخطر مستطير الجنان
تأكل النار منه لا هوناج ... من بطئها ولا اللظى عنه دانى

أترى ظلال الواقعية فى هذه القصة المنظومة ؟ إنه يصف بتفصيل دقيق شأن كتاب الرواية الواقعيين حين بدأ مذهبهم هذا يسود الفن الروائى وإن كان الوصف المفصل هنا أخاذاً بفضل اللغة الجميلة والألفاظ المنتقاة ، فقد كان فى الرواية الواقعية فى أول نشأة المذهب الواقعى مملا ، يكاد يصرف القارئ عن إكمال الرواية . . فإن القارئ قد تعود الأدب الرومانى الذى كانت الإطالة فيه إطالة فى المديح أو الذم ، أما هذه التفصيلات فى وصف الحدث وما يحيط به من جميع جوانبه فهو ابن المذهب الواقعى . . ومازال هذا المذهب بقرائه وما زال قراؤه به حتى

ما لمسلين عولجت فى صباها ودعاها من الردى داعيان
خفت ثم أغرقت ثم بادت قضى الأمر كله فى ثوانى
بغت الأرض والجبال عليها وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلى حقداً عليها فتنشقّ م انشقاقاً من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجماً وقذفا بشواظ من مارج ودخان
وتسوق البحار ردًّا عليها جيش موج نائى الجناحين دانى
فاستحال النجاء واستحكم اليأ س وخارت عزائم الشجعان
رُب طفل قد ساخ فى باطن الأرض م ينادى : أمى ، أبى ، أدركانى
وأب داخل إلى النار يمشى مستميتاً تمتد منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيه مروع الخطر مستطير الجنان
تأكل النار منه لا هوناج من بطئها ولا اللظى عنه دانى

أترى ظلال الواقعية فى هذه القصة المنظومة ؟ إنه يصف بتفصيل دقيق شأن كتاب الرواية الواقعيين حين بدأ مذهبهم هذا يسود الفن الروائى وإن كان الوصف المفصل هنا أخاذاً بفضل اللغة الجميلة والألفاظ المنتقاة ، فقد كان فى الرواية الواقعية فى أول نشأة المذهب الواقعى مملا ، يكاد يصرف القارئ عن إكمال الرواية . . فإن القارئ قد تعود الأدب الرومانى الذى كانت الإطالة فيه إطالة فى المديح أو الذم ، أما هذه التفصيلات فى وصف الحدث وما يحيط به من جميع جوانبه فهو ابن المذهب الواقعى . . ومازال هذا المذهب بقرائه وما زال قراؤه به حتى

اعتدل وعدل عن الإطالة فى التفاصيل ، ولعل دخول السيريالية والتعبيرية فى الفنون قد جعل أغلب الكتاب الواقعيين يكتفون بلمسة هنا ، وأخرى هناك ، فإذا الشخصية أمامك واضحة المعالم ، مكتملة الملامح . .

وأنا لا أعرف إن كان حافظ قد قرأ فى الأدب الواقعى أم لم يقرأ ، بل إننى أرجح أنه لم يقرأ منه ولا عنه ولا سمع به . . وجرى منه القلم فكانت هذه القصة الواقعية . . ترى أى مذهب من الفن القصصى نحن واجدون ،عند أمير الشعراء حين نلاقيه به فى نهاية المطاف .

فلننتظر حتى يتم اللقاء . . ونرى معاً القصة عند أحمد شوقى أمير الشعراء .

القصة فى شعر أحمد شوقى

إن صلتى بأحمد شوقى أمير الشعراء صلة وثيقة وطيدة ، فقد كان أبى يحبه ويحب شعره ، وأحسب أن شعر« شوقى »هذا أول شعر سمعته فى حياتى . . وقد جذبنى منذ سمعته . . وتعلقت به فى إعجاب وإكبار وتحمس . . وإننى من الكثيرين الذين يعتبرون شوقى هو أعظم الشعراء الذين أنجبتهم العربية منذ عرف الشعر . . فقد استطاع أن يجمع ضخامة المتنبى ، وصياغة البحترى ، وأناقة الشريف الرضى . . وصناعة أبى تمام . . كل ذلك فى شعر يتسم بملامحه هو . . وبملامح جيله وبلاده . . ثم هو الذى أنشأ المسرحية الشعرية فى الأدب العربى . . وإن كان عزيز أباظة قد طور المسرحية بعده وجعلها فنًّا أشم باذخاً ، فلشوقى دائماً فضل السبق والريادة . . كما كان عزيز باشا يقول دائماً . .

وقد بدأت قراءة شوقى وحفظ شعره منذ لا أذكر متى . . ولكننى على أية حال أذكر أننى قرأت مجنون ليلى ثلاث عشرة مرة متعاقبة وأنا أنتظر نتيجة الشهادة الابتدائية فى عام ١٩٣٩ وكان عمرى إذاك اثنتى عشرة سنة . .

ولو شئت أن أتكلم عن القصة عند شوقى . . لكتبت فيه وحده

مجموعة تستطيع أن تصل إلى عشرين فصلاً .. إن لم تكن أكثر .. فالقصة التاريخية عنده لا نهاية لها . . واللفتات التاريخية أيضاً لا يمكن أن يحيطها بحث . .

فحين يقول مثلاً :

والعلم بدرى أحل لأهله ما يفعلون

مشيراً بذلك إلى أن النبى بشر أهل بدر بأن الله غفر لهم ذنوبهم وحين يقول :

السبق من عاداتكم أترى القيامة تسبقون

مشيراً إلى سبق قدماء المصريين على زمانهم . .

تحس مدى اتصاله بالتاريخ وتعلقه به .

ولقد كنت وأنا أتنقل بين قصائد شوقى حائراً فى أيها أختار لك ، وأيها أدع . فكرت فى مصاير الأيام وأنا أكاد أحفظها وهى تمثل الرواية الشعرية فى أروع صورها . . وفكرت أن أقتبس لك من كبار الحوادث فى وادى النيل ، وهى تمثل القصة التاريخية الكاملة وفكرت وفكرت وانتهيت أن أترك القلم يجرى ، وهو سيقدم لك دون عناء — روائع خالدات . .

أقرأ معى هذه القصة الكاملة . .

وأغن أكحل من مها يكفيه علقت محاجره دمى وعلقته
لبنان دارته وفيه كنامة بين القنا الخطار خط نحبته

السلسبيل من الجداول ورده ... والآس من خضر الخمائل قوته
إن قلت تمثال الجمال منصباً ... قال الجمال براحتى مثلته
دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل ... فأتيت دون طريقه فزحمته
فازور غضباناً وأعرض نافراً ... حال من الغيد الملاح عرفته
فصرفت تلعابى إلى أترابه ... وزعمتهن لبانتى فأغرته
فمشى إلىَّ وليس أول جؤذر ... وقعت عليه حبائلى فقنصته
قد جاء من سحر الجفون فصادنى ... وأثبت من سحر البيان قصدته

قصة كاملة فيها الرومانسية فى أنضر صورها وأزهاها ، وفيها وصف بطلة القصة فى لفظ موفق ، ذلك الوصف الذى يقدح لدى القارئ شرارة التشويق تهم بأن تقول له : كفى ، ثم بعد ، ثم تتأنى ، نريد أن نسمع من الوصف مزيداً . .

وانظر معى كيف كتب قصة مؤتمر الصلح ين الأحزاب فى مصر فكتب قصة كفاح مصر وبرلمانها . .

بشرى إلى الوادى تهز نباته ... هو والربيع مناكب الأرواح
تسرى ملمحة الحجول على الربى ... وتسيل غرتها لكل بطاح
التأمت الأحزاب بعد تصدع ... وتعالت الأقلام بعد تلاحى
سحبت على الأحقاد أذيال الهوى ... ومشى على الأوتار والأقداح
ترمى بطرفك فى المجامع لا ترى ... غير التعانق واشتباك الراح
شتى فضائل فى الرجال كأنها ... شتى سلاح من قنا وصفاح

فإذا هى اجتمعت لملك جبهة كانت حصون مناعة ونطاح
الله ألف للبلاد صدورها من كل داهية وكل صراح
وزراء مملكة دعائم دولة أعلام مؤتمر أسود صباح
يبنون بالدستور حائط ملكهم لا بالصفاح ولا على الأرماح
وجواهر التيجان مالم تتخذ من معدن الدستور غير صحاح
احتل حصن السحق غير جنوده وتكالبت أيد على الملتاح
ضجت على أبطالها ثكناته واستوحشت لكماتها النزاح
هجرت أرائكه وعطل عوده وخلا من الغادين والرواح
وعلاه نسج العنكبوت فزاده كالغار من شرف وسمت صلاح

أرأيت كيف روى محنة الدستور والبرلمان فى مصر. ثم أرأيت هذه الإشارة فى البيت الأخير، وكيف روى لك بها قصة الغار والعنكبوت فى هجرة النبى عليه الصلاة والسلام؟ ورأيت ورأيت وما أعظم ما نرى لشوقى وما أروع ما بهرنا شعره العبقرى وفنه الخالد.

كنت أنوى أن أخصص هذا الفصل لشعر الأطفال عند شوقى، الذى أراد به أن ينقل فن لافونتين الفرنسى إلى الشعر العربى، ولكن عز علىَّ أن أترك قصيدة أحببتها وحفظتها فى يوم من الأيام، وتمثل الحياة وقصة الحياة، دون أن أنقل منها، إنها قصيدة مصاير الأيام، وهى قصيدة طويلة تربو على الثمانين بيتاً أو قد تزيد، ولكننى سأحاول أن أقدم القصة منها، فى نقلات سريعة، إن استطعت إلى ذلك سبيلاً:

ألا حبذا صحبة المكتب وأحبب بأيامه أحبب
ويا حبذا صبية يمرحون عنان الحياة عليهم صبى
يراح ويغدى بهم كالقطيع على مشرق الشمس والمغرب
إلى مرتع ألفوا غيره وراع غريب العصا أجنبى
ومستقبل من قيود الحياة شديد على النفس مستصعب
توارت بهم ساعة للزمان على الناس دائرة العقرب
تشول بإبرتها للشباب وتقذف بالسم فى الشبب
يدق بمطرقتيها القضاء وتجرى المقـــاديرفى اللولب . . .
وتلك الأواعى بأيمانهم حقائب فيها الغد المختبى
فغيها الذى إن يقم لا يعد من الناس أو يمض لا يحسب
وفيها اللواء وفيها المنار وفيها التبيع وفيها النبى
وفيها المؤخر خلف الزحام وفيها المقدم فى الموكب

أليست هذه بواكير قصة الحياة فى الطفولة فلننتقل معه إلى الصبا :

جميل عليهم قشيب الثياب ومالم يجمل ولم يقشب
كساهم بنان الصبا حلة أعز من المخمل المذهب
وأبهى من الورد تحت الندى إذا رف فى فرعه الأهدب
وأطهر من ذيلها لم يلم من الناس ماش ولم يسحب

ثم انظر إلى هذا الهول الذى تحيط به الحياة أبناءها وأمسك قلبك أن يطير من مكانه :

قطيع يزجيه راع من الدهـ ـر ليس بلين ولا صَلَّب
أهابت هراوته بالرفاق ونادت على الحيّد الهرب
وصرف قطعانه فاستبد ولم يخش شيئًا ولم يرهب
أراد لمن شاء رعى الجديب وأنزل من شاء بالمخصب
ورَوَّى علي ريِّها النهلات ورد الظماء فلم تشرب
وألقى رقاباً إلى الضارين وضن بأخرى فلم تضرب
وليس ببالى رضا المستريح ولا صجر الناقم المتعب
وليس بمبق على الحاضرين وليس بباك على الغيب
فياويحهم هل أحسوا الحياة لقد لعبوا وهى لم تلعب
تجرب فيهم وما يعلمون كتجربة الطب فى الأرنب
سقتهم بسم جرى فى الأصول وروى الفروع ولم ينضب

لابد أن أقف . أحس قلبى يتقافز فى صدرى . . ما هذه الحياة ؟ ولـكنها الحياة وما هذا الهول ؟ ولـكنها الحقيقة ، ذلك هو الفنان يضع أمامك الحقيقة التى تعرفها فتروعك وكأنك لم تكن تعرفها .

أنمضى معاً فى قصة الحياة . . وكيف نستطيع التوقف ، وهل تسمح لنا الحياة أن نتوقف ، فلنمض ، فإن الحياة تريد لنا أن نمضى .

ودار الزمان فدال الصبا وشب الصغار عن المكتب
وجد الطلاب وكد الشباب وأوغل فى الصعب فالأصعب
وعـذب بـالعلم طلابـه وغصوا بمنهله الأعذب

رمتهم به شهوات الحياة وحسب النباهة والمكسب
وزهو الأبوة من منجب يفاخر من ليس بالمنجب
تؤلفهم فى ظلال الرخاء وفى كتف النسب الأقرب
وتكسر فيهم غرور الثراء وزهو الولادة والمنصب
بيوت منزهة كالعتيق وإن لم تستر ولم تحجب
يدانى ثرى ترى مكة ويقرب فى الطهر من يثرب
إذا ما رأيتهمو حولها يموجون كالنحل عند الربى
رأيت الحضارة فى حصنها هناك وفى جندها الأغلب

وبعد أن رسم لك فى درامية باذخة دور القدر فى حياة الإنسان يصل إلى نهاية القصة .

وخدش ظفر الزمان الوجوه وغيض من بشرها المعجب
وغال الحداثة شرخ الشباب ولو شبت المرد فى الشبب
سرى الشيب متئداً فى الرءوس سرى النار فى الموضع المعشب
حريق أحاط بخيط الحياة تعجبت كيف عليهم غبى
ومن تظهر النار فى داره وفى زرعه منهم يرعب
حياة يغامر فيها امرؤ تسلح بالناب والمخلب
وصار إلى الفاقة ابن الغنى ولاقى الغنى ولد المترب
وقد ذهب الممتلى صحة وصح السقيم فلم يذهب
وكم منجب فى تلقى الدروس تلقى الحياة فلم ينجب

وغاب الرفاق كأن لم يكن   بهم لك عهد ولم تصحب...
إلى أن فنوا ثلة .. ثلة   فناء السراب على السبسب

* * *

لا تعليق .

صدر من هذه السلسلة :

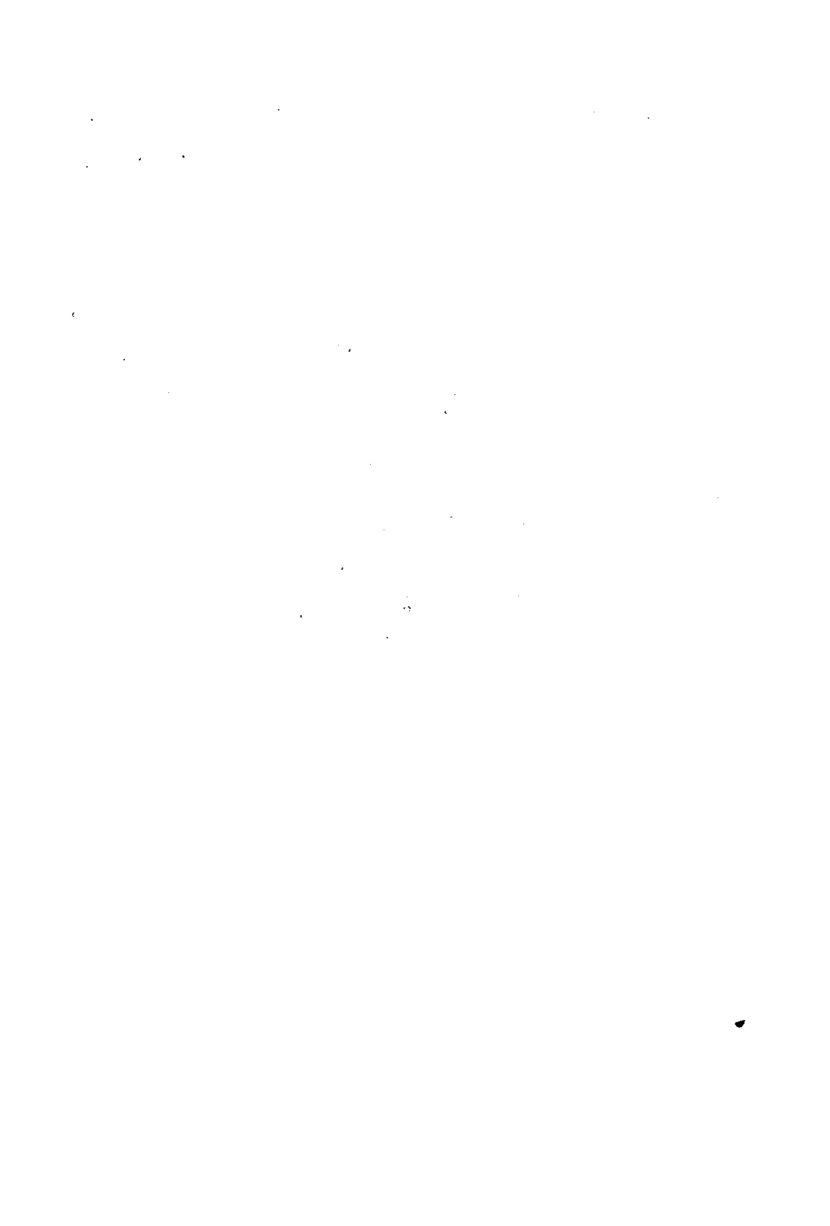
١ – طعام الفم والروح والعقل	توفيق الحكيم
٢ – الفضاء ومستقبل الإنسان	د. فاروق الباز
٣ – شريعة الله وشريعة الإنسان	المستشار على منصور
٤ – أسس التفكير العلمى	د. زكى نجيب محمود
٥ – عالم الحيوان	د. محمد رشاد الطوبى
٦ – تاريخ التاريخ	على أدهم
٧ – الفلسفة فى مسارها التاريخى	د. توفيق الطويل
٨ – حواء وبناتها فى القرآن الكريم	أمينة الصاوى
٩ – علم التفسير	د. محمد حسين الذهبى
١٠ – المسرح الملحمى	د. عبد الغفار مكاوى
١١ – تاريخ العلوم عند العرب	د. أحمد سعيد الدمرداش
١٢ – شلل الأطفال	د. مصطفى الديوانى
١٣ – الصهيونية	فتحى الإبيارى
١٤ – البطولة فى القصص الشعبى	د. نبيلة إبراهيم سالم
١٤م– عيون تكشف المجهول	د. محمد عبد الهادى
١٥ – الحضارة	د. أحمد حمدى محمود
١٦ – أيامى على الهوا	سلوى العنانى
١٧ – المساواة فى الإسلام	د. محمد بديع شريف
١٨ – القصة القصيرة	د. سيد حامد النساج
١٩ – عالم النبات	د. مصطفى عبد العزيز مصطفى
٢٠ – العدالة الاجتماعية فى الإسلام	أنور أحمد
٢١ – السينما فن	صلاح أبو سيف

٢٢ – قناصل الدول — أحمد عبد المجيد
٢٣ – الأدب العربي وتاريخه — د. أحمد الحوفى
٢٤ – المكتبة والقارئ — حسن رشاد
٢٥ – الصحة النفسية — د. سلوى الملا
٢٦ – طبيعة الدراما — د. إبراهيم حماده
٢٧ – الحضارة الإسلامية — د. على حسنى الخربوطلى
٢٨ – علم الاجتماع — د. فاروق محمد العادلى

الكتاب القادم :

العمارة الإسلامية

كمال الدين سامح



رقم الإيداع	١٩٧٧/٤٦٢٤
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٥٠ - ٠

١٠٣/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)